﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين أدلّة السّاعة وكمال القدرة، وبديع الخلق والتّفكّر بوسائل الإدراك

في مناسبة الآية لما قبلها عدّة أوجه:

الأوّل: بعد أنْ بيّن سبحانه أنّ الغيب كلّه في علمه وقدرته، وأنّه على كلّ شيء قديرٌ، وأنّه خالق العاجزين والقادرين والمنافقين ومن لا خير فيه، بيَّن سبحانه أنّ من مظاهر قدرته كذلك خلق الإنسان وعلمه، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾[1].

الثّاني: بعد إيراد المثَلَيْن البليغيْن وما جاء بعدهما ممّا دلّ على كمال قدرته وعلمه عاد إلى إكثارِ الدَّلائِلِ على انفرادِ اللّهِ بالتصَرُّفِ، وإلى تَعدادِ النِّعَمِ على البشَرِ من نعمةِ إخراج الإنسان من بطن أمه، وعن نعمة البيوت الّتي هي محلّ سكن الإنسان، وغير ذلك، عطفًا على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ بعدما فصَلَ بينَ تَعدادِ النِّعَمِ بما اقتضاه الحالُ من التّذكيرِ والإنذارِ[2].

الثالث: لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى أمرَ السّاعةِ، وأنّها كائنةٌ لا محالةَ، فكان في ذلك دَلالةٌ على النَّشأةِ الآخرةِ، وتقَدَّمَ وصفُ الكافرينَ بانتفاءِ العِلمِ؛ ذكَرَ تعالى النَّشأةَ الأولَى، وهي إخراجُهم من بُطونِ أمَّهاتِهم غيرَ عالِمينَ شَيئًا، تنبيهًا على وقوعِ النَّشأةِ الآخِرةِ، ثمَّ ذكَرَ تعالى امتِنانَه عليهم بجَعلِ الحواسِّ الّتي هي سببٌ لإدراكِ الأشياءِ والعِلمِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4230.

(2) ابن عادل، اللّباب: 12/ 127، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 231، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 94.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 574، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 221.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُطُونِ﴾: أصلُ (بطن): أصْلٌ واحِدٌ لا يكادُ يُخْلِفُ، وهو إنْسِيُّ الشَّيءِ والمُقْبِلُ منهُ، فالبَطْنُ خِلافُ الظَّهْرِ، تَقولُ بَطَنْتُ الرَّجُلَ: إذا ضَرَبْتَ بَطْنَهُ، والمَبْطونُ العَليلُ البَطْنِ، والمُبْطِنُ: الخَميصُ البَطْنِ، والبَطْنُ من العَرَبِ دونَ القَبيلَةِ[1]، والبَطْنُ: الغامِض مِن الأرْض، والبَطْنُ: جَوْفُ كلِّ شيءٍ، وبَطَنَ الشَّيءُ: خَفِيَ فهوَ باطِنٌ، والباطن خِلافُ الظّاهِرِ[2]، والبِطانةُ: الدُّخلاء الَّذين يُنبسط إلَيْهِم ويُستبطنون، يُقالُ: فُلان بِطانةٌ لفُلان، أي: مُداخِلٌ لَهُ مُؤانس، والبِطانةُ أيضًا: ما بَطَن من الثَّوْب وكانَ من شَأْن النّاس إخفاؤه[3]، والمعنى المحوريّ للبطن هو التّعبير عن الجوف الدّاخليّ للشّيء حيث يَخْفَى فيه ما يدخل إليه[4] والمقصود بالبُطُون: جمعُ بَطْنٍ، وهو ما بَيْنَ ضُلوعِ الصَّدْرِ إلى العانَةِ، وفِيهِ الأمعاءُ والمَعِدَةُ والكَبِدُ والرَّحِمُ[5].

2) ﴿ٱلسَّمْعَ﴾: أصلُ (سمع) هو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمعًا، والسَّمعُ: الذِّكر الجميل، يُقالُ: قَدْ ذَهَبَ سَمعُه في النّاسِ، أيْ: صِيتُهُ، ويُقالُ: سَمِعْتُ بِالشَّيْءِ، إذا أشْعَتَهُ لِيُتَكَلَّمَ بِهِ[6]، والسَّمعُ: قوَّةٌ في الأُذن به يُدرك الأصوات، وفِعله يُقالُ له السَّمعُ أيضًا، ويُعبّر تارةً بالسّمع عن الأذن، وتارةً عن فعله كالسّماع، وتارةً عن الفهم، وتارة عن الطّاعة[7]، والمَسْمَع: المَوضع الَّذي يُسمع مِنْهُ، من قَولهم: هوَ منِّي بمرأًى ومَسْمَع؛ أيْ: حَيْثُ أراهُ وأسمع كَلامه[8].

والمُراد بالسَّمعِ في الآية: الإحساسُ الَّذي به إدراكُ الأصواتِ الَّذي آلَتُهُ الصِّماخُ[9].

3) ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾: أصْلُ (بصر) العلمُ بالشّيء، ومنه البصيرة: البرهان، وأصلُ ذلك كلّه وُضوحُ الشَّيْءِ، ويُقالُ: بَصُرْتُ بِالشَّيْءِ: إذا صِرْتَ بِهِ بَصِيرًا عالِمًا، وأبْصَرْتُهُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (بطن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (بطن).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 424، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 2/ 221.
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمع).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.

إذا رَأَيْتَهُ[1]، فالبصر: العين، وقِيلَ: البَصَرُ حاسَّةُ الرّؤية، والبَصِيرَةُ: العِبْرَةُ والحُجّةُ والاِسْتِبْصارُ في الشَّيْءِ[2]، والبَصَر يُقال للجارحة النّاظرة، وللقوّة الّتي فيها، ويُقال لقوّة القلب المُدركة: بَصِيرَة وبَصَر[3]، والمُبْصِرُ: النّاظِرُ لِغَيْرِهِ، وضِدُّهُ الأَعْمَى، وأيضًا المُشرف على الشَّيْءِ المُحافظ عَلَيْهِ، والبَصِيرَةُ: قوَّةُ الإدْراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ والخبرة[4] والمُراد بالبَصَرِ في الآية: الإحساسُ المُدركُ للذَّواتِ الَّذي آلَتُهُ الحَدَقَةُ[5].

4) ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: أصلُ (فأد) يَدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حَرارَةٍ، ومنه: الفُؤادُ، سُمِّيَ بذلك لحرارته، والفَأْدُ: مصدرُ فأدْتُهُ، إذا أَصَبْتَ فُؤادَهُ[6]، والفُؤادُ: القلب لكنْ يُقال له: فُؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ؛ أيْ: التّوقّد، وقيل: يُراد به العقلُ لا العضو المعروف[7]، وقيل: أصلُ الفأْدِ، الحركة والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ، لأنّه ينبضُ ويتحرّك كثيرًا[8]، وقِيلَ: الفُؤادُ وعاء القلب، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقَلْبُ حَبَّتُه[9]، والمُراد بالأفئدة في الآية: العَقْلُ مَقَرُّ الإدراكِ كُلِّه، فهوَ الَّذي تنقُلُ إليهِ الحَواسُّ مُدْرَكاتِها، وهي العِلْمُ بالتَّصَوُّراتِ المُفرَدَةِ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّذكير بخلق الإنسان، المُستوجِب للشّكران:

يخاطبُ اللّهُ تعالى عبادَه مُعدِّدًا أنواعًا مِن نعمِه عليهم، وذاكرًا بعض مظاهر قدرته سبحانه فيقولُ: واللّهُ – وحده – هو الّذي أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرَجَكم مِن بُطونِ أمَّهاتِكم لا تعقلون شيئًا، ولا تعلمون، فرزقكم عقولًا تفقهون بها، وتُميّزون بها الخير من الشَّرّ، وبصَّركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السّمع الّذي تسمعون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(2) ابن سِيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(3) الرّاغب، المُفردات، ص: 127.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).
(7) الرّاغب، المُفردات، ص: 646، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 191.
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 233.

به الأصوات، فيفقهُ بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم، والأبْصار الّتي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميّزون بها بعضًا من بعض، والقلوبُ الّتي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها، وتُفكرون فتفقهون بها، وما كلّ ذلك إلّا لتشكروه - وحده - على ما أنعم عليكم، وتُفرِدوه ﷻ بالعبادة[1].

إنعام الله باعثٌ على شُكرِه، وتوحيده وعبادته

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الآية على سابقتها:

المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ يحتمل وجهيْن:

أدلّة الخلق والتّمكين، مُؤذنة بأنّ مقدوراته تعالى لا نهاية لها

الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النّحل: 72]، وهو عطفٌ منتظمٌ معه في سلك أدلّةِ التّوحيد من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [النّحل: 65]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ [النّحل: 70]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النّحل: 71][2]؛ أيْ: ما كان بعدَ كلِّ جملة من هذه المعطوفات، إنّما هو لبيانِ وجهِ العبرة فيها، وضلال الشّرك وأهله، فهي تابعةٌ لمعانيها، فلا يكون ثمّة مانعٌ من العطف عليها[3]، وقد جاءتْ هذه الآية تكميلًا لعرض الأدلّة الموجبة لعبادة الله - وحده - عن طريق بيان خلق الله وقدرته، وهي تُؤذن "بأنّ مقدوراته تعالى لا نهايةَ لها، والمذكورُ بعضٌ منها"[4].

الثّاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وهو عطفُ المُفصّل على المُجمل؛ لأنّ ﴿إِنَّ﴾ تعليلٌ لِما يأتي بعد جملتها[5]، والمعنى:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 265، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 590.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 2304.
(4) الخفاجيّ، كفاية الرّاضي: 5/ 357.
(5) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.

"إنَّ اللّه عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر أنْ يُحيِيَ الخلائق دفعةً كما قدرَ أنْ أحياهم مُتدرّجًا، ثمّ دلَّ على قُدرته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم﴾"[1].

الغرض من تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفعليّ:

الخَالقُ لا يكونُ إلّا من اللهِ العظيمِ سبحانه

قدّم البيانُ القرآنيُّ المُسنَد إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على المُسنَدِ الفعلي ﴿أَخۡرَجَكُم﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾، ولم يَقُلْ: (أخرجكم اللّهُ من بطون أمهاتكم)؛ لإفادة أمور:

الأوّل: الاختصاص؛ إذ إنّ القرآن قد قدّم ما حقّه التّأخير في اللّغة، ليكون المعنى: أنَّ اللّه - وحده - مَن أخرجكم من بطون أمّهاتكم، وليس هناك من يفعل هذا غيره، فهو مختصٌّ به سبحانه ولو قلنا (وأخرجكم اللّه) لَما دلّ على اختصاص الإخراج باللّه سبحانه كما دلّ عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم﴾[2].

الثّاني: تقويةُ الحكم وتوكيده، وهو اختصاصُ اللّهِ بالإخراج، وذلك لتكرار الإسناد؛ فكأنّ الحكمَ هنا ذُكر مرّتيْن؛ مرّةً حين أُسند الفعلُ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسند إلى ضميره العائد إلى المبتدأ، بخلاف إنْ تأخّر المُسنَد إليه (وأخرجكم اللّه) فلا يحدثُ هذا التّكرار؛ بل يحدثُ الإسناد مرّة واحدة فقط.

بلاغة إظهار اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ دون الإضمار:

عظمةُ اللهِ سبحانه دليلُ انفرادِهِ بالخلقِ والإنعام

أظهرَ البيانُ الإلهيُّ الاسم الجليل ﴿وَٱللَّهُ﴾ ولم يُضمره في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ رغم أنّ الإضمارَ هو مقتضى الظّاهر، وأنّه أوضح من أنْ يُصرّح به إذ لا خالق إلّا اللّه؛ وذلك لأمريْن:

الأوّل: لقصدِ التّنويهِ بالخبر إذِ افتُتح بهذا الاسم العظيم، ولأنّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 197.

دلالةَ الاسم العلَم أوضحُ وأصرحُ، فهو مُقتضَى مقام تحقيقِ الانفرادِ بالخَلق والإنعام دون غيره من شركائهم؛ لأنّ المشركين يُقرّون بأنّ اللّهَ هو فاعلُ هذه الأشياء[1].

الثّاني: لتربيةِ المهابة في قلوبهم بذكرِ الاسم الجليل، فتمنعهم من أنْ يجترؤوا على مقامِ اللّه فيشركوا معه آلهةً أخرى، وخاصّة أنّ السّياق هو في تعظيم قدرة اللّه وعلمه في مواجهة اعتدائهم على حقّ اللّه تعالى وعبادتهم أصنامًا لا تضرُّ ولا تنفع.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿أَخۡرَجَكُم﴾:

التّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿أَخۡرَجَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ مع أنّ الإخراجَ يمتدّ إلى الحاضرِ والمستقبل، وهو أمرٌ مُستمرٌّ متجدّدٌ؛ لتنزيل مُنْتَظَرِ الوقوع منزلة الواقع[2]، دلالة على حقّية وقوعه.

قـدرةُ اللـهِ على إخـراجِ الإنسانِ مـن بطـنِ أمّـهِ، مُتحقّقةٌ وبديعة

معنى حرف الجرّ ﴿مِّنۢ﴾:

حـــرف الجـــرّ ﴿مِّنۢ﴾ في قولـــه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ ابتدائيّة، والمعنى: أخرجكـــم إخراجًا مُبتدئًا من ضيقِ الرّحم إلى سعة الوجود، يخرجُ الجنينَ من رَحِم أمّه لا يعلم شيئًا، ثمّ يعطيه اللّه تعالى أسبابَ العلمِ بهذه الحياة[3]، وفي ﴿مِّنۢ﴾ الابتدائيّة إشـــارةٌ إلى قدرةِ اللّهِ تعالى على إخراجِ الإنسان من باطن الأرض بعد موتـــه؛ أيْ: الّذي "أخرجكم منها قادرٌ على إخراجكم من بطنِ الأرضِ بلا فرق؛ بل بطريقِ الأوْلى"[4].

إظـهـارُ قـدرةِ اللهِ على إخراجِ الإنـسـانِ، من ضيقِ الرّحم، إلـــى سـعـةِ الوجود

بلاغة الكناية في الإخراج من البطون:

المقصود بالبطون: الأرحام؛ وذَكَر البطن؛ لأنّه مكانُ الرّحم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 198.
(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 2304.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.

ويصدقُ على المولود أنّه خرج من رحم أمّه أو خرجَ من بطنها، ولكن لكون "اللّه كريم يكنّي"[1] كما قال ابن عبّاس ﷺ فقد كنّى عن الإخراجِ من أرحامِ الأمّهات بالإخراجِ من بطونِ الأمهات؛ لأنّه لا يُستحسن ذِكرُه حتّى لا يتبادرَ إلى الذّهن صورة الإخراجِ من الرّحم، كما أنّ في هذه الكنايةِ إشارةً إلى الإخراجِ من بطنِ الأرض يوم البعث، فالّذي أخرجكم من بطونِ أمّهاتكم قادرٌ على إخراجكم من بطنِ الأرضِ بلا فرقٍ؛ بل بطريقِ الأوْلى[2].

الإخـــراجُ من بطونِ الأمّهات، إشـــارةٌ إلى الإخـــراجِ من بطونِ الأرض

الموقع النّحويّ لجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾:

جملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ حالٌ من الضّمير المنصوب في ﴿أَخْرَجَكُم﴾، والمعنى: حالَ كونكم عندَ الإخراجِ غيرَ عالمين شيئًا أصلًا[3]؛ أيْ: جُهّالًا مُستصحِبين جهلَ الجماديّة[4]، فالمولودُ عند خروجِهِ من بطنِ أمّه لا يعلمُ شيئًا، ثمّ تأخذُ حواسّه تنقلُ الأشياءَ تدريجيًّا، فجعلَ اللّهُ في الطِّفل آلاتِ الإدراكِ وأصولَ التّفكّر[5]، وما يفعله المولودُ من الصّراخِ، ومصّه اللّبنَ من ثديِ أمّه إنّما هذا من الفطرةِ لا مِنَ العلم؛ لأنّ العلمَ كسْبيٌّ لا يكون إلّا بتعلّم.

حـــالُ المـولـودِ في تـدرّجـه في العـلـم، دليـلٌ عـــلى قـــدرةِ الخالق سبحانه

دلالة التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ للدّلالة على أنّ خروجَ الإنسان من بطنِ أمّه جاهلًا مُستصحبًا جهلَ الجماديّة حتّى تعملَ الحواسّ الّتي خلقها اللّهُ له من السّمع والكلام والبصر والعقل أمرٌ متجدّدٌ ومستمرٌّ لا يتخلّف، فلا يمكنُ أنْ يولدَ إنسانٌ عالمًا، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإنسانَ الّذي لا

خـروجُ الإنسانِ جـاهـلًا حـتّـى تعمل حواسّه، أمـــرٌ مـتـجـدّد مشهودٌ في كلّ مولودٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/ 487.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 131.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 11/ 345.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.

يُعمِلُ حواسّه وفقَ ما خلقها الله فلا يعلمُ حقّ المُنعم عليه ولا يُؤمنُ بالنّشأةِ الآخرةِ؛ فإنّه في حكمِ الجاهلِ الّذي لا يعلمُ شيئًا.

الغرض من تذكير لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾:

نكّر القرآن ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾؛ لإفادة أمرين:

التّعميمُ أبلغُ في الدّلالة على عدم العلم، فضلًا عن حقّ المُنعمِ بالعلم

الأوّل: العموم؛ أيْ: عموم المَنفيّ؛ لأنّ ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرةٌ جاءت في سياق النّفي[1]؛ أيْ: أخرجكم حالَ كونكم غيرَ عالمين شيئًا من الأشياء قلّ أو جلّ[2]؛ من العلم بالحياةِ ومشاربها، ومن العلم بحقّ الله على عبادهِ من إدراكِ عظمةِ خلقه في تكوينه الإنسانَ من سلالةٍ من طين، وجعله نطفةً في قرارٍ مكين، وجعل النّطفةَ علقةً والعلقةَ مضغةً، وجعل المضغةَ عظامًا[3].

الثّاني: التّحقير والتّقليل؛ أيْ: لا يعلمون شيئًا من الأشياء مهما كان قليلًا، وإذا كان علمهم القليل منتفيًا فانتفاءُ علمهم للكثيرِ آكدُ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾:

عطفُ خبرٍ على خبرٍ، يظهرُ كمالُ علمه وقدرتهِ سبحانه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ تحتمل معنيين:

الأوّل: عاطفةٌ، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، وهذا العطفُ لا يدلُّ على أنَّ خلقَ السّمعِ للمولود كان بعدَ خروجه من بطنِ أمِّه؛ بل العطف هنا عطفُ خبرٍ على خبرٍ، وليس للتّرتيب، وذلك لأنَّ الجنينَ حين يولد تكونُ حاسّة السّمعِ عنده قد اكتملتْ، ونكتة تأخيره - أي: الجعل - أنّ السّمع ونحوه من آلاتِ الإدراك، إنّما يُعتدّ به إذا أحسّ الإنسانُ وأدركَ، وذلك لا يكون إلّا بعد الإخراج[4].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 218.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4230.
(4) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 206.

أو أنّ الترتيب مقصود، ويحمل السّمع على الاستماع والإبصار على الرّؤية[1]، أو لتقديمِ الظُّلمة (عدم العلم) على النّور (العلم والإدراك)، فالظّلمة المعنويّة سابقة على النّور المعنويّ، فانتفاءُ العلم ظلمة معنويّة مجازيّة، فهي متقدّمة بالزّمان على نور الإدراكات كلّها[2].

الثّاني: ابتدائيّة[3]؛ لأنّ الكلام قبلها قد تمّ، ثمّ ابتدأ بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، فاللّهُ قد جعلَ هذه الأشياء لهم قبلَ الخروج من بطونِ الأمّهات[4].

فائدة التّعبير بالجعل دون الخلق:

جعْلُ السّمعِ والأبصارِ والأفئدة، تصييرٌ وتهيئةٌ بعد خلقِ مادّة الإنسان

عبّر القرآن بالفعل ﴿وَجَعَلَ﴾ دون (خلق)، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ - رغم أنّ بينهما تقاربًا دلاليًّا؛ فقد أتيا في بعضِ المواضع بمعنًى واحد - ؛ مراعاةً لعادةِ القرآن الّذي لم يستعملْ لفظَ (خلق) مع إيجادِ السّمع والبصر والأفئدة؛ ولأنّ الخلقَ هو إيجادٌ من عدمٍ وتقديرُ الأشياءِ على مثالٍ لم يُسبق إليه[5]؛ أيْ: إبداعُ الشّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، ولذا استعمله القرآن في خلقِ الإنسانِ وخلقِ السّماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، بخلافِ الجعلِ الّذي ورد في اللّغة بمعنى التّهيئةِ والتّضمين والتّبعيّة، وإحداثِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينهِ منه[6]، وهذا أنسبُ مع نعمةِ السّمعِ والبصرِ والعقل الّذي هيّئه اللّهُ للإنسان بعد أنْ خلقه من عَدَمٍ، يقول الشّعراويّ في معنى الخلق والجَعْل:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 251.
(2) المُؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة، ص: 147، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/ 240.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 130، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 438.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 34.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(6) الرّاغب، المُفردات، ص: 196.

"الحقُّ ﷻ قد خلقَ المادّة أوّلًا، ثم جعلَ من المادّة سمعًا وبصرًا"[1]، والخلاصةُ: أنّهما يشتركان في معنى إحداثِ الشّيءِ من الشّيءِ، ويتميّز لفظُ (الخلق) بمعنى التّقديرِ والإبداعِ والأوّليّة، بينما يتميّز الجعلُ بمعنى التّصيير والتّهيئة، وكونه محصّلًا من آخر.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَكُمُ﴾:

تخصيصُ اللهِ الإنسانَ وتمليكُه وسائلَ الإدراكِ تشريفٌ وتكليفٌ

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ تُفيد معنيين:

الأوّل: شِبْهُ التّمليك؛ أيْ إنّ هذه النّعم من السّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ شبهُ ملكٍ للإنسان، والمالكُ الحقيقيّ لها هو اللّه تعالى.

الثّاني: الاختصاصُ؛ أي: أنّ اللّهَ اختصَّ الإنسانَ بوسائل الإدراكِ والوعي والحفظ؛ أيْ: خصّكم بالسّمعِ لتسمعوا مواعظَ اللّهِ، والأبصارِ لتبصروا دلائلَ اللّه، والأفئدةِ لتعقلوا عظمةَ اللّه، وكلا المعنيين يفيدُ تشريفَ الإنسان وتكريمه، بما حمّله اللّهُ من أمانةِ التّكليف، ويشيرُ إلى وجوبِ إحساسه بهذهِ المسؤوليّة فإنّه سيُحاسَب عليها.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾:

في التّقديمِ عنايةٌ بالمُقدَّم، وتشويقٌ للمؤخَّر

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المَنْصوباتِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ لأمرين:

الأوّل: الدلالةُ على العنايةِ والرّعايةِ من اللّهِ سبحانه بالمخاطَبين حرصًا على نفعهم واتّعاظهم بما أنعمَ بما سيذكره من نعم، وللإيذانِ بكونِ المجعول نافعًا لهم، ولتَشويقِ النَّفسِ إلى المؤخَّرِ؛ ليَتمكَّنَ عندَ وُرودِه عليها فضْلَ تَمكُّنٍ[2]، والمعنى: خلقَ لمنفعتكم تلكَ المشاعرَ لتعرفوا أنّها مع كونِها في أنفسِها نعمًا جليلةً لا يُقادر قدرُها هي

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 10/ 5910.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.

وسائلُ إلى التَّمتّعِ بسائرِ النِّعمِ الدِّينيّة والدُّنيويّةِ الفائضةِ عليكم، وتشكروها بأنْ تصرفوا كلًّا منها إلى ما خُلق لهُ، فتُدركوا بسمعِكم الآياتِ التّنزيليّةَ النّاطقةَ بالتَّوحيدِ والبعثِ وبأبصارِكم الآياتِ التّكوينيّةَ الشّاهدةَ بهما، وتستدلّوا بأفئدتكم على حقيقتهما[1].

الثّاني: لما في قوله ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ من نوعِ طولٍ يُخِلُّ تقديمُه بجزالة النّظمِ الكريم[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ و﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ و﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾:

آلات إدراكِ الإنسان وتعليمه، إشارةٌ إلى كمالِ القدرةِ، ووجوبِ التّوحيد

(اللّام) في كلمة ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ و﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ و﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ جنسيّةٌ تُفيد العموم، أمّا في السّمع فقد دخلتْ على مصدرٍ يدلّ على الجنسِ الموجودِ في جميعِ حواسِّ النّاسِ، وأمّا الأبصار والأفئدة فقد دخلتْ على جمعٍ فأفادت عموم الأبصار والأفئدة عند كلّ النّاس، والمقصودُ: سمعُ وبصرُ وفؤادُ كلّ واحدٍ منّا منذ خُلق أبونا الأوّل آدم، وأُمّنا الأولى حوّاء وإلى آخر إنسانٍ في الأرض، وقد يُبتلى الإنسانُ فلا يكون له سمعٌ، ولا يكون له بصرٌ، ويكونُ مجنونًا فلا يكون له وعيٌ، ولكن هذا بالنّسبةِ للمجموع يكون نادرًا وقليلًا، والأصلُ في الأشياء العمومُ، والحكم للغالب[3]وهذا العموم يشيرُ إلى كمالِ قدرةِ الخالقِ سبحانه، ووجوبِ توحيده بالعبادة، وعدمِ إشراكه بأصنامٍ مخلوقةٍ لا تملكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا.

نكتة إفراد ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ في السّياق:

إفرادُ السّمعِ عادةٌ قرآنيّةٌ مُطّردةٌ لحِكَمٍ متنوّعةٍ

أفرد البيانُ الإلهيُّ السّمعَ ولم يجمعها بخلاف الأبصار والأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ لعدّة أمور:

الأوّل: لأنّ السّمع قوّةٌ واحدةٌ، ولها فِعلٌ واحدٌ؛ فالإنسانُ لا يضبطُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 81.
(3) الكتّانيّ، تفسير القرآن الكريم: 3/ 91.

في زمانٍ واحدٍ كلاميْن، والأذنُ مَحلُّ السَّمعِ، ولا اختيارَ لها فيه؛ فإنَّ الصوتَ مِن أيِّ جانبٍ كان يَصِلُ إليه، ولا قُدرةَ لها على تَخصيصِ القوَّةِ بإدراكِ البعضِ دونَ البَعضِ، وأمّا الإبصارُ فمَحلُّه العينُ ولها فيه شِبهُ اختيارٍ؛ فإنّها تتحرَّكُ إلى جانبٍ مرئيٍّ دون آخَرَ، وكذلك الفؤادُ محلُّ الإدراكِ، وله نوعُ اختيارٍ يلتفتُ إلى ما يُريدُ دون غَيرِه[1].

الثّاني: لأنّه جرى فيه على الأصلِ في إفرادِ المصدرِ؛ لأنَّ أصْلَ السَّمعِ أنَّه مَصدرٌ، فهو دالٌّ على الجنسِ الموجودِ في جميعِ حواسِّ النّاسِ[2]، وكذلك فإنّ الأبصارَ اسمٌ، فهو ليس نصًّا في إفادةِ العمومِ؛ لاحتمالِ توَهُّمِ بصَرٍ مخصوصٍ، فكان الجمعُ أدَلَّ على قصدِ العمومِ، وأنفى لاحتمالِ العهدِ[3].

الثّالث: الجمعُ باعتبارِ المُتعلَّقاتِ؛ فلمّا كان البصرُ يَتعلَّقُ بأنواعٍ كثيرةٍ مِن الموجوداتِ، وكانتِ العقولُ تُدرك أجناسًا وأنواعًا، جُمِعا بهذا الاعتبارِ، وأُفرِدَ السّمعُ؛ لأنَّه لا يَتعلَّقُ إلّا بنوعٍ واحدٍ، وهو الأصواتُ[4].

الرّابع: لأنَّ التَّفاوُتَ في الأبصارِ والأفئِدة أكثَرُ مِن التَّفاوُتِ في السَّمعِ، بما لا يَعلَمُه إلّا اللّهُ تعالى[5].

الخامس: لكونِ إفرادِ السّمعِ عادةً قرآنية؛ فالمتتبّع لآيات اللّه الّتي تتحدّث عن السّمع يجد أنّها التزمتْ في ذِكْرِ السّمع الإفراد مُطلقًا، سواء اقترنَ به البصرُ والأفئدة أم لم يقترنْ، وسواء جاء منكّرًا أم معرّفًا بأل أو بالإضافة، ولم يقعْ في القرآنِ مجيءُ السّمع جمعًا في أيّ حالٍ من أحواله، ولم يَرِد في القرآنِ لفظُ الأسماع أبدًا[6].

سرّ تخصيصِ السّمع والأبصار والأفئدة بالذِّكْر:

خَصَّ البيانُ القرآنيّ الأعضاءَ الثّلاثةَ ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ لِشَرَفِها وفَضلِها، ولأنَّها مِفتاحٌ لكُلِّ عِلمٍ، فلا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 142.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 104، وحاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/ 1001.

وصَلَ للعبدِ علمٌ إلّا من أحَدِ هذه الأبوابِ الثّلاثةِ، وبهما إدراكُ دَلائلِ الاعتقادِ الحقِّ[1]، وإلّا فسائرُ الأعضاءِ والقوى الظّاهرةِ والباطنةِ هو الّذي أعطاهم إيّاها، وجعَلَ يُنَمّيها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أنْ يَصِلَ كُلُّ أحدٍ إلى الحالةِ اللّائقةِ به؛ وذلك لأجلِ أنْ يَشكُروا اللّهَ باستعمالِ ما أعطاهم مِن هذه الجوارحِ في طاعةِ اللّهِ، فمَن استعمَلَها في غيرِ ذلك كانتْ حُجَّةً عليه، وقابَلَ النِّعمةَ بأقبَحِ المُقابَلة[2].

وسائل الإدراك، مفاتيح العلوم والفهوم

بلاغة التّرتيب بين ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾:

قدّم البيانُ القرآنيّ ذِكْرَ السّمع، ثم أردف بالأبصار والأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ مراعاةً للسّياق الّذي يُصرّحُ بأنّ الإنسانَ يولدُ لا يعلمُ شيئًا، وأنّ الأصل فيه الجهل، وهو ما يدُلُّ على نَقصِه؛ لأنّ وسائلَ العلم والإدراك لم تعملْ بَعْد، فإذا أرادَ اللّهُ له أنْ يعلمَ خلقَ له وسائل العلم، لذا قدّمَ سبحانه ما يكونُ إدراكهُ أقدمَ من الإبصار والفهم وهو السّمع[3]، وقد بيَّن علماءُ وظائفِ الأعضاءِ أنّ هذا التّرتيب القرآنيّ للأعضاء هو التّرتيب الطّبيعيّ، فالطفلُ بعد الولادةِ يسمعُ أوّلًا، ثمّ بعد حوالي عشرة أيام يُبصرُ، فترى الطّفلَ يفزعُ من الصّوتِ العالي بعد أيام من ولادته، ولكنْ إذا وضعت أصبعك أمام عينيه لا يطرف؛ لأنّه لم يَرَ بعد، ومن السّمع والبصر وهما السّادةُ على جميعِ الحواسّ تتكوّنُ المعلومات الّتي في الأفئدة، هذا التّرتيبُ القرآنيّ الوجوديّ هو التّرتيب الطّبيعيّ الّذي وافق العلمَ الحديث[4]، وخلاصةُ حكمةِ هذا التّرتيب: أنّ القرآنَ بعد أنْ صرّح بأنّ الأصلَ في الإنسان الجهلُ بيّن طُرُقَ العِلمِ وترتيبها في الوجود والارتقاء: فأوّلها السّمعُ، ثمّ الأبصارُ

المُدرَكُ بالسّمعِ أعـمُّ، والمُـدرَكُ بالبصرِ أتـمُّ، والوعي بالأفئدة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 234.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 445.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 13/ 8114.

وبهما الإدراكُ، أمّا السّمعُ فالمُدرَك به أعمُّ وأشملُ، والمُدرَكُ بالبصرِ أتمُّ وأكملُ، فالسّمعُ له العمومُ والشّمولُ، والبصرُ له الظّهورُ والتّمامُ وكمالُ الإدراك، ثم الأفئدةُ وبها الوعيُ والحفظُ.

ولتقديمِ السّمع على البصر حِكمٌ أخرى منها: مراعاة عادةِ القرآن الكريم[1]، ولأهميةِ السّمع؛ فهو أشرفُ نعمًا وأعظم نفعًا من البصر[2]، وهو طريقُ تلقّي الوحي[3]، ووسيلةُ بلوغِ دعوةِ الأنبياء إلى أفهامِ الأممِ على وجهٍ أكملَ من بلوغها بواسطة البصر[4]؛ إذ لو كان النّاسُ كلّهم صُمًّا، ثم بُعِثتْ الرّسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يُدرِكون آدابَ العبوديّةِ وأحكامَ الشّرائع؟ إذ الإشارةُ تتعذّر في كثير من الأحكام[5].

نكتة فصل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

الإنعامُ يَبعَثُ العاقِلَ على الشُّكرِ، فهو غايةُ الخَلقِ ومنتهى الأمر

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين جملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عمّا قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بينَ الجملتيْن من كمالِ اتّصال؛ أيْ: اتّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ لكون قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ جاءَ بعد ذِكرِ أسبابِ الشّكر ودواعيه والباعث عليه من النّشأة الأولى وعظيم قدرة اللّه فيها، وما امتنّ به سبحانه من خلقِ الحواسّ الّتي جعلها سببًا لإدراكِ الأشياء وآلاتٍ لتحصيل العلم والمعرفة، وهذا من أعظم النّعم الّتي تستدعي من العبد شُكرَ اللّه بتَوحيدِه ونَبذِ الإشراك؛ فإنَّ الإنعامَ يَبعَثُ العاقِلَ على الشُّكر؛ لهذا قال تعالى عَقِبَه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6]، فالشّكرُ هو الغايةُ مِن خَلقِه وأمرِه؛ بل هو الغايةُ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 152.
(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 11/ 345.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 258.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 152.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 231.

الّتي خلَقَ عَبيدَه لأجْلِها[1]، والمعنى: "كي تعرِفوا ما أنعمَ به عليكم طورًا غِبَّ طَورٍ فتشكروه"[2]، بأنْ توجّهوا القوى العاقلة فيكم لتؤدّي وظيفتها، وأنْ يفتح الإنسانُ منها طاقةً على هذا الوجود، فيرى ما لبسه من نعمِ اللّه عليه، وإحسانه إليه، فيحمده ويشكر له[3].

الغرض من التّعبير بأسلوب التّرجّي (لعلّ):

عدلَ القرآنُ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عن لامِ التّعليل، وأتى بحرف الرّجاء (لعَلّ) فلم يَقُلْ: (لتشكروا)؛ لكونِ (لعَلّ) ترجّيًا فيه معنى التّعليل، ولكنّها تومئُ إلى أنّ شكرهم لنعمِ اللّه أمرٌ يتطرّقه احتمالُ التّخلّفِ، وذكرُ حرفِ التّعليل يفوّت هذه الخصوصيّة، والمعنى: "رجاء أنْ تشكروا لتوافرِ أسباب الشّكرِ ودواعيه، والرّجاء من العباد، لا من اللّه ﷻ"[4]؛ أيْ: "لتصيروا - بمعارفِ القلوبِ الّتي وهبَكُموها إذا سمعتم المواعظ وأبصرتم الآيات - في حالٍ يُرجى فيها شكركُم لِما أفاضَ عليكم من لطائف صنعه، بأنْ تعرفوا ما له من العلمِ والقدرةِ وحُسنِ التّعرّف، فتعترفوا له بجميع ما أتتكم به رسله"[5].

شكر المشركين، يشوبهُ احتمالُ التّخلّفِ والتّقاعس

وللتّعبير بـ (لعلّ) قبل لفظ ﴿تَشْكُرُونَ﴾ تحقيقٌ للغرضِ البلاغيّ منها وهو إبرازُ المتَمَنَّى في صورةِ الممكن المطْموعِ فيه، بغيةَ الإشعارِ بكمالِ العنايةِ به، والتّلهُّفِ على الحصولِ عليه، أو تحقيقه.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ صيغة المضارع ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ للتّنبيهِ على وجوبِ استمرارِ شكرِ نعمِ

استمرارُ شكرِ النّعمِ، سببٌ في دوامها، ودليلٌ على صِدْقِ شكرها

(1) ابن القيّم، عدّة الصّابرين، ص: 119.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 132.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 335.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4231.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 222.

اللّهِ بتوحيده، وألّا يحيدوا عن أسبابِ بقاءِ عزّهم، وممّا يُعلّل هذا الاستمرار في الشّكر ويؤكّده أنّ هذه النِّعم هي نِعَمٌ نستخدمها في كلّ لحظةٍ، لا تفارقنا لا في اللّيل ولا في النّهار، فهي أدعى أنْ تُذكِّرنا بشكرِ خالقنا على ما أنعم علينا، بخلاف نِعَمٍ أخرى لا يستخدمها الإنسان إلّا في أوقاتٍ متفرّقة.

ولذلك جاء الحثّ على شكرها في آيات أخرى؛ منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: 78] وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السّجدة: 9] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾ [المُلك: 23].

الغرضُ من حذفِ المفعولِ به للفعل ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

مع النِّعم الّتي لا تُحصى، يكون العمومُ أدلَّ على كُنْهِ الشّكرِ المطلوب

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿تَشْكُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم الّذي يدلُّ على كُنْهِ الشّكرِ المطلوب؛ إذ لو ذُكرَ المفعول به لأدّى ذلك إلى تخصيصِ الشّكرِ بأمرٍ واحدٍ، وهذا مُخلٌّ بالإفصاحِ عن كُنْهِ المطلوبِ منهم، وهو الشّكرُ على جميعِ نعمهِ الّتي لا تُعدّ ولا تُحصى في سورة سُميّتْ بسورة النِّعم، والمعنى: لَعَلَّكُم تَشْكُرونَ نعمةَ الإيجاد ونعمةَ الإمدادِ، أظهركم أوّلًا من العدمِ، ثم أمدّكم ثانيًا بضروبِ النّعم طورًا بعد طورٍ، حتّى قدمتم عليه[1].

سرّ التّعبير بالشّكر دون الحمد:

كثرةُ نعمِ الله تستوجبُ الشّكرَ باللّسانِ والجوارحِ والجَنان

عبّر البيانُ القرآنيّ بالشّكر دون الحمد في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ مراعاةً للسّياق الّذي يتحدّثُ عن نِعَم تستوجبُ الشّكرَ، قد وصلتْ لكلّ إنسانٍ من الإيجادِ والإخراجِ والإمدادِ بوسائل الإدراكِ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 151.

والوعي والفهم، والشّكرُ عليها يكون باللّسانِ ثناءً، وبالجوارحِ عملًا بما خُلقتْ من أجله، وبالجَنانِ رضًا عن الله، وهذا أنسبُ مع الشّكر الّذي هو التّعظيمُ لأجلِ إنعامٍ وصلَ إلى الشّاكر[1]، والّذي يكون باللّسانِ والجوارحِ والجَنان[2].

كما أنّ الشّكر ضدّ الكفر[3]، ويمكن أن يكون المعنى: لعلّكم تؤمنون، والسّياق هنا يدلّ على ذلك؛ فالآيات السّابقة تتحدّث عن توبيخ المشركين، وعبادتهم غير الله، وعن كمال علم الله وكمال قدرته سبحانه وعن عظيمِ نعمه الّتي امتنّ بها عليهم، فناسب ترجّي إيمانهم بعد كلّ هذا.

توجيه المُتشابِه اللّفظيّ:

التّـذليـلُ بما يـناسـبُ سياق كلّ آيةٍ، أسلوبٌ قرآنيٌّ بليغ

قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [المؤمنون: 78]، وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ [الملك: 23]، ففي سورة النّحل ختم الله الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، بينما في سورة المؤمنون وسورة المُلك ختم بقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾؛ أيْ ورد في هاتيْن الآيتيْن نفي شكرهم على المعروف من هذه العبارة أو تقليله بمقتضى اللّفظ، وفي آية النّحل ترجّي شكرهم مع اتحاد المقصود من إبداء عظيم النّعمة بالإسماع والإبصار، فللسّائل أنْ يسأل عن الفرق؟

والجواب، والله أعلم: هو مراعاة السّياق في كلِّ موضع، ففي سورة النّحل الآية مبتدَأةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فناسبَ هنا ذكر التّرجّي؛ لكونه وصفَ

(1) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/ 19.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/ 450.
(3) الشّاطبيّ، الموافقات: 4/ 220.

حالٍ قبل تعيين التّكليف، وورود التّرجي لأنْ يكون منهم الشّكر لذِكْره إيّاهم في حالٍ لم يتهيّؤوا فيها بعد لقبول أمرٍ أو نهيٍ أو إعراضٍ عن ذلك، ولا يتعلّق بهم التّكليف، فناسب قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أمّا الآيتان فالإخبارُ فيهما عن أحوالِ مَنِ اسْتوفَى سنّ التّكليف وعقلَ الخطابَ وشاهدَ العظات وفهمها، وتكرّر عليه التّذكار فلم يجد عليه شيئًا، فناسب ذلك نفيُ شكرهم، فقد وضَحَ التّناسب في هذه الآي، ووردتْ كلّ واحدة منها على ما يجب، وإنَّ عكس الوارد غير مناسب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القلب والفؤاد:

القلبُ مُضغةٌ في الصّدرِ مُتقلّبةٌ بالأفكارِ، والفؤادُ وعاءُ القلبِ مُتحرّقٌ مُتحرّك

القلب: أصلُ (قلب) يدلّ على رَدِّ شيءٍ من جِهةٍ إلى جِهةٍ، أو على خالصِ الشّيءِ وشريفه (باطنُ الشّيءِ ولُبُّه)[2]، ومنه قلبُ الإنسان؛ وهو الجارحةُ والمُضغةُ المعروفةُ الّتي في الصّدر، فهي أشرفُ ما في الإنسان وأخلصه[3]، وسُمّي بذلك لكثرةِ تقلّبه، ويُعبّر بالقلبِ عن العقلِ، وعن المعاني الّتي تختصّ به من الرّوح، والعلم، والشّجاعة، وغير ذلك[4].

أمّا الفؤادُ؛ فأصلُ (فأد) يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ، وسُمِّيَ الفؤاد بذلك لحرارته[5]، والفُؤادُ: القلبُ، لكنْ يُقال له: فُؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ؛ أيْ: التّوقّد[6]، وقيل: أصله من الحركةِ والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ؛ لأنّه ينبضُ ويتحرّك كثيرًا[7].

(1) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 304.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قلب).
(4) الرّاغب، المُفردات، ص: 681، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 289.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأد).
(6) الرّاغب، المُفردات، ص: 646.
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).

ومن العلماء مَن ذَكَر فروقًا بينهما، ومن هذه الفروق أنّ القلبَ: مضغةٌ من الفؤادِ مُعلّقة بالنّياط، والقلبَ أخصُّ من الفؤادِ لحديث: "أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ قلوبًا وألْينُ أفئدةً"[1]، فوصف القلوب بالرّقّة والأفئدة باللّين[2]، وأنّ الفؤاد هو وعاءُ القلب فيما قيل، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقلبُ: حبّته[3].

(1) صحيح البخاريّ، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريّين وأهل اليمن، رقم: 4388.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (القلب)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 289.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»